

## قصة أصحاب السبت

### دروس وعبر

أحمد الشرقاوي

أستاذ بجامعة الأزهر والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سابقا

### ملخص

قصة أصحاب السبت: لهذا الموضوع أهمية بالغة لتعلقه بدراسة القصص القرآني، واستنباط ما فيه من دروس وعبر. ومعرفة طبائع اليهود للحذر من سوء أساليبهم وحيلهم الخبيثة؛ فلا شك أنهم أعدى أعدائنا. وحاجة الدعاة والمصلحين والمربين إلى الاستفادة من قصص القرآن وتوظيفه في الدعوة والتربية. ومن أهداف البحث: بيان هذه القصة القرآنية والاستفادة من كلام المفسرين. وإبراز ما فيها من دروس وعبر. وسيتكون هذا البحث من مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة. المبحث الأول: سياق القصة. المبحث الثاني: القصة بإيجاز. المبحث الثالث: بيان القصة. المبحث الرابع: دروس وعبر مستفادة من القصة. الخاتمة.

ومن النتائج المستخلصة: سنة الله تعالى في إمهال المذنبين لعلمهم يتوبون، وهذا من لطفه بعباده ورحمته. فالحذر الحذر من عقوبته، سيئا أولئك الغارقون في بحر الذنوب، فإن عقاب الله شديد، وعذابه أليم. الفسق والعصيان والاحتيال على شريعة الرحمن والعتو والظلم من أسباب المسخ. وجوب الاعتبار بقصص

السابقين، والاعتاظ بعاقبة الهالكين. لا ينتفع بالمواعظ إلا أولوا النهى وأهل التقى، فليحرص العبد على تقوى الله فهي زأده وسبيلهُ لكل خير. من أسباب الاحتيال ما جبلت عليه بعض النفوس من طمع وجشع وميل للمكاسب الهائلة بأقل مجهود، كالمرايين وغيرهم. تشير القصة إلى خطورة الصيد الجائر والذي يستنزف ثروات البر والبحر ويفسد البيئة. دقة القرآن الكريم وإنصافه حيث ذكر الناجين بجميل صنيعهم كما ذكر الهالكين بقبيح فعالهم. ذكر القرآن الكريم لهذه الصفحات المنسية في تاريخ اليهود دليل على صدق القرآن وأنه منزل من عند الله . حاجتنا لدراسة القصص القرآني واستنباط ما فيه من دروس وعبر، فأقترح مشروعاً علمياً للفوائد المستنبطة من القصص القرآني، ورسالة علمية عن خصائص القصص القرآني ومقاصده.

كلمات مفتاحية: قصة، أصحاب السبت، الحيل غير الشرعية، اليهود.

### Abstract

*Story owners Saturday ashab alsabt to this thread attached importance to the study of Quranic stories, and to draw out the lessons of the cross. And know the natures of the Jews warned of bad tactics and malicious tricks; there is no doubt that they are the most demonized enemies. And the need for preachers and reformers and educators to take advantage of the Koran stories and rehired in advocacy and education. And research objectives: a statement that the Quranic story and benefit from the words of the commentators. The highlight of the lessons across. This research will consist of an introduction and four sections and a conclusion first . the context of the story. The second topic: the story briefly. Section III: Statement of the story. The fourth topic: lessons learned through the story. Conclusion.*

*It is the findings: 'God's way to grace the guilty to repent. So beware of his sentence! Particularly those flush in a sea of sins, the punishment of Allah is severe, and painful torment. Immorality and disobedience, fraud on the law of Rahman and injustice of the causes*

*deformed. The former must account stories, and cues sequel perish. advise does not benefit only the pious wise. Of the causes of fraud it is formed on some of the souls of the greed and the tendency of enormous gains with minimal effort, and others .story to the seriousness of overfishing, which depletes the land and sea wealth and spoil the environment. Koran accuracy and fairness as stated lovely exposed for survivors also said those who are perishing . Koran to this forgotten page in the history of the Jews proof of the sincerity of the Koran and that the house of God. We need to study the Quranic stories and draw out the lessons of the cross, I suggest a science project for the benefits derived from the Quranic stories, scientific and message about the characteristics of Quranic stories and purposes.*

**Keywords:** *story, the owners of the Sabbath, illegal tricks, Jews.*

## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد: فلا نزال نمضي في رحاب قصص القرآن، ننعمُ بظلاله الوارفة، ونروي ظمأنا لمعرفة أحوال الأمم السالفة، وننهلُ من عذبه النَّمير، متزودين من عبره وعظاته ما نُغذُّ به المسير، ونلمسُ في صحبته ورحابه الأُنسَ والسَّمير، فهو السَّراجُ المنير، والروضُ الحير، من اقتطف من ثمره، والتقطَ من دُرره، واستنبطَ من عبره، سار على هدى ونور، وعاش في فرحٍ وحُبور. ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111]

وبين أيدينا قصة حافلة بالعبر والعظات، بل بحرٌ يفيض بالخيرات والبركات، ما أحوجنا إلى أن نطوف بساحله، ونبحر في ثبجه<sup>(1)</sup>، لصيد فوائده، وقيد أوابده، وجمع فرائده. إننا على موعدٍ مع قصة تشوّف النفوس لتأملها، وترنو البصائر لمتابعة أحداثها، قصة أصحاب السبت: كيف تعدّوا على حرمة هذا اليوم، فاحتالوا على شرع الله، وانتهكوا محارمه، وأمّنوا مكره، ثم كيف أفضى بهم الحال؟ ونقف من خلالها على موقف المصلحين الغيورين، الذين وقفوا في وجه المحتالين، وكانوا لهم واعظين، ولتوبتهم راجين، ولربهم مُعذرين؟

هذا ما سنعرّفه من خلال هذا البحث، والله الموقِّع، وهو الهادي إلى الصواب.

(1) تُبِحُ البحر: وسطه.

### أهمية الموضوع وأسباب اختياره

- أهمية دراسة القصص القرآني واستنباط ما فيه من دروس وعبر.
- معرفة طبائع اليهود للحذر من سوء أساليبهم وحيلهم الخبيثة؛ فلا شك أنهم أعدى أعدائنا.
- حاجة الدعاة والمصلحين والمربين إلى الاستفادة من قصص القرآن وتوظيفه في الدعوة والتربية.
- شغفي بقصص القرآن، وهذه القصة أثرت عظيم في نفسي مذ سمعتها في صباي من أحد الدعاء.
- أنني حضرت في هذا الموضوع، وخطبت فيه عدة خطب، فرأيت أن أكتب، لعل الله ينفعني بالمكتوب.

### أهداف البحث

- (1) تدبر القصص القرآني، فكم فيه من عبر وعظات.
  - (2) بيان طبائع اليهود، للحذر منها.
  - (3) إبراز ما فيها من دروس وعبر.
  - (4) إبراز سمات القصة القرآنية من واقعيتها وصدقها، وعمقها.
- مشكلة البحث: لماذا تحدث القرآن عن أصحاب السبت؟ وماذا قال عنهم؟
- حدود البحث: الآيات القرآنية التي تتحدث عن قصة أصحاب السبت.
- خطة البحث: سيتكون هذا البحث من مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة.
- المبحث الأول: سياقات القصة.

المبحث الثاني: القصة بإيجاز.

المبحث الثالث: بيان القصة.

المبحث الرابع: دروس وعبر مستفادة من القصة.

الخاتمة: وفيها نتائج وتوصيات وقائمة المراجع.

### منهج البحث

- جمع الآيات التي تحدثت عن أصحاب السبت وتدبرها.
- الرجوع لكتب التفسير وعلوم القرآن، والاستفادة منها.
- جمع الفوائد من كتب التفسير والمؤلفات في القصص القرآني.
- تحري الصحيح الثابت من الأحاديث والآثار.
- تجنب الموضوعات والإسرائيليات، فإن ذكرت فللتحذير منها.
- أكتفي من اللغة والبلاغة والقراءات بما له صلة بالمعنى وإبراز لجمال العبارة وثرائها.
- قمت بتخريج الآيات القرآنية الواردة في البحث بذكر اسم السورة ورقم الآية.
- قمت بتخريج جميع الأحاديث الواردة، بذكر الراوي الأعلى وعزو كل حديث إلى مصادره من كتب السنة التي روي فيها، وذكر موضعه، مع بيان ما في الحديث من ألفاظ غريبة بالرجوع إلى كتب اللغة وكتب غريب الحديث وغيرها، وإذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما: فالحديث صحيح، وإذا لم يكن فيها ولا في أحدهما رجعت إلى أقوال المحدثين الثقات في الحكم عليه، فإن لم أجد حكماً عليه اجتهدت في الحكم عليه بعد النظر في سنده.

- بينت معانى مفردات ألفاظ القرآن الكريم بالرجوع إلى كتب التفسير وكتب علوم القرآن وكتب اللغة.
  - عزوت القراءات التي أوردتها في الرسالة إلى أصحابها مع توجيه كل قراءة بالرجوع إلى الكتب المتخصصة في ذلك.
  - قمت بترجمة الأعلام الواردة في الرسالة مستعينا بالكتب المتخصصة في ذلك.
  - تخريج الأشعار بعزوها لمصادرها، حسبما تيسر لي.
- والله أسأل أن يوفقنا للصواب ويجنبنا الزلل، ويرزقنا القبول.

## المبحث الأول سياقات القصة

ورد الحديث عن قصة أصحاب السبت في أربع مواضع من ثلاث سور في كتاب الله تعالى هي على ترتيب المصحف: سورة البقرة، وسورة النساء، وسورة الأعراف، بينما أشارت سورة النحل إلى سبب تحريمه، لكن القصة جاءت مفصلة في سورة الأعراف، وهي سورة مكية.

حين نجمع آياتها ونتدبرها: ترتسم أمام أعيننا صورة مكتملة، نُجِّل لنا ما حوته من فوائد وعبر.

الموضع الأول: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٥﴾ جَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٦٦﴾ [البقرة: 63 - 66].

والآيات في سياق خطاب بني إسرائيل وتذكيرهم بنعم الله تعالى وعهده عليهم، ودعوتهم للإيمان، وبيان مواقف أسلافهم المتعنتة، وجحودهم نعم الله عليهم واستخفافهم بها، وفيه تذكير وتحذير: تذكيرهم بحال وعاقبة من سبقهم من أسلافهم حين اعتدوا، حيث حلَّ بهم العذاب البئيس، ومسحَّهم الله تعالى قردة خاسئين، مبعدين مطرودين صاغرين، فإن تشابه الحال يفضي إلى تشابه العاقبة، فالمقدمات الواحدة حتما تنتهي إلى نتيجة واحدة. فجعل الله تعالى هذه القصة عظة وعبرة لكل معتبر، حيث نكَّل الله بهم وجعلهم قردة خاسئين لما اعتدوا على حرمة هذا اليوم، وجعل من قصتهم عظة رادعة وعبرة لغيرهم، وجعل الله تعالى قريتهم ومسحَّهم عبرة لأهل قريتهم، ولسائر القرى، عبرة لزمانهم ولسائر الأزمان عن الحسنِ وقتادة: «وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ» بَعْدَهُمْ، فَيَتَّقُوا



نِقْمَةَ اللَّهِ وَيَجْدُرُوهَا»<sup>(1)</sup>. وقال ابن كثير: «يقول تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ} يا معشر اليهود ما أحل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره إذ كان مشروعاً لهم، فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يوماً ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك، مسخهم الله إلى صورة القردة»<sup>(2)</sup>.

ويأتي الموضع الثاني: في سياق الوعيد لأهل الكتاب سيّما يهود المدينة الذين أعرض جلهم بل ناصبوا دعوة الله العدا، وقد سلك القرآن بهم طريق الحجة والبرهان، فطرق قلوبهم بالوعيد الذي يهز القلوب: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَعْصَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء: 47]. فتوعّد الله تعالى أهل الكتاب أن يصيبهم ما أصاب أسلافهم الذين سبقوا على طريق الغواية والعصيان، فجعلهم الله لكل ظالم آية، بأن يمسخهم الله تعالى، فيحوّل وجوههم إلى أفقيتهم، أو يطمس معالم الوجه وملاحمه، وخصّ الوجه لأنه أشرف المواضع، وأظهرها، وكونه موضع الحسن، واللعن هو الطرد والإبعاد والحرمان، والعار الذي يلازم صاحبه والعذاب البدني والنفسي الذي يرهقه . قال ابن عاشور: «أريد باللعن هنا الخزي، فهو غير الطمس...»<sup>(3)</sup> قيل إن هذه الآية كانت سبب إسلام كعب الأحبار حين سمعها من قارئ ذات ليلة، ولم يكن عقد العزم بعد على الدخول في الإسلام - وإن كان الحق قد ظهر له وبان- فارتجف فؤاده وطار النوم من

(1) ابن أبي حاتم تفسير القرآن العظيم، (1 / 177).

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (1 / 134).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير (4 / 150).

عينيه وبات ليلته فزعا أن يصيبه هذا الوعيد، حتى أصبح وأعلن إسلامه.<sup>(1)</sup> ويأتي الموضوع الثالث: في سياق الإجابة عن تعنتهم ومطالبهم العجيبة، بيان ما كان منهم في سالف الزمان من تمرد وعصيان، وجحود ونسيان، فقد حذرهم الله من الاعتداء على حرمة السبت، لكنهم لم يمثلوا لما أمر به الله، ولم ينتهوا عما نهى عنه الله، بل استمروا التمرد والعصيان، واستعدبوا الكفر والبهتان، بل كرروا مطالبهم المتعنتة، كما فعلوا مع أنبيائهم، فتشابهت جرائم اليوم بجرائم الأمس. قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْآيَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا بِمُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ فَمَنِ نَفَسَ مِن تَحْتِهَا وَمَن شَرَّبَ شَرْبًا فَغُلِبْنَا بِهِ ﴿١٥٤﴾﴾ [النساء: 153، 154].

فنهاهم الله عن الاعتداء في يوم السبت، وقد بينت المواضع الأخرى، موقف من انتهك حرمة هذا اليوم. أما الموضوع الرابع: وعليه مدار حديثنا -: فقد جاء في سورة الأعراف في سياق بيان نعم الله عليهم وكيف قابلوها بالجحود والنسيان، والتحایل والعصيان، قال تعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُم عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ إلى آخر الآيات. وسوف نفضل وجه مناسبة هذه الآيات لما قبلها، حيث سبق الكلام عن بني إسرائيل ومواقفهم المتعنتة مع نبي الله موسى عليه السلام. وجاءت القصة على وجه التفصيل بينا

(1) البغوي، معالم التنزيل (1/ 642). كعب الأحبار رحمه الله تابعي أسلم في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وانتقل للمدينة المنورة وهو ثقة في الحديث وكان مشهورا برواية الإسرائيليات 0 قال الذهبي عنه: «كعب بن ماتع الحميري، البجلي، العلامة، الحبر، الذي كان يهوديا، فأسلم بعد وفاة النبي ﷺ وقدم المدينة من اليمن في أيام عمر - رضي الله عنه - فجالس أصحاب محمد ﷺ فكان يُحدثهم عن الكتب الإسرائيلية، ويحفظ عجائب، ويأخذ السنن عن الصحابة. الذهبي، سير أعلام النبلاء (5 / 488).

أُجِلَّتْ فِي الْمَوَاضِعِ الْأُخْرَى، ذَلِكَ أَنْ مِنْ خِصَائِصِ أُسَالِيبِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: التَّفْصِيلَ بَعْدَ الْإِجْمَالِ، وَهَذَا مِنْ تَصْرِيفِ الْقَوْلِ، مَعَ انْسِجَامِ الْقِصَّةِ مَعَ سِيَاقِهَا وَامْتِزَاجِهَا مَعَ مَقَاصِدِ سُورَتِهَا وَانْتِظَامِهَا مَعَ مَحْوَرِهَا، وَصَدَقَ اللَّهُ تَعَالَى إِذْ يَقُولُ ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا﴾ [الزمر: 23]. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: 41].

ثم يأتي الموضوع الخامس في سورة النحل وهي مكية مبيناً كيف ضلوا واختلفوا، واختاروا السبب فشدّد الله عليهم، بأن حرّمه عليهم، ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: 124]. عن مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة<sup>(1)</sup>. وَعَنِ السُّدِّيِّ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَى الْيَهُودِ الْجُمُعَةَ، فَأَبَوْا وَقَالُوا: يَا مُوسَى: إِنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ يَوْمَ السَّبْتِ شَيْئًا، فَاجْعَلْ لَنَا السَّبْتَ، فَلَمَّا جَعَلَ عَلَيْهِمُ السَّبْتَ اسْتَحَلُّوا فِيهِ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ<sup>(2)</sup>. وتعدية الفعل بـ «على» لتضمينه معنى الإيجاب والفرض، ولبیان كون تخصيص السبت ليس نعمة لهم، بل عقوبة وابتلاء، لتعتهم وتنازعهم، قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب «ومن البلاء الذي أخذ الله به بنى إسرائيل، أن جعل من شريعتهم حرمة العمل في يوم السبت، ولم يكن ذلك رحمة بهم، بل نكالا وبلاء»<sup>(3)</sup> وسياق الآية الكريمة متسق مع قوله تعالى قبلها ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ

(1) مجاهد، التفسير (1/ 202). الصنعاني، عبد الرزاق، التفسير (2/ 279)، ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم 13544.

(2) وأوردها ابن حجر في فتح الباري 2/ 355، وقال رحمه الله: «وليس ذلك بعجيب من مخالفتهم كما وقع لهم في قوله تعالى: {وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ} وغيره ذلك، وكيف لا وهم القائلون: سمعنا وعصينا. انتهى كلامه. فتح الباري 2/ 355. ذكره السيوطي في الدر المنثور 5/ 177 ونسبه إلى ابن أبي حاتم فقط.

(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن - (2/ 16).

الْكَذِبَ لَا يَقُولُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ [النحل: 116 - 118] إذ أن افتراءات اليهود، واستحلالهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله حرمهم من الفلاح وأوقعهم في الخيبة والخذلان، فحرم الله عليهم السبت عقوبة لهم، لاختلافهم العظيم، وجدلهم العقيم، وقال تعالى: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَيفًا وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِيهِ أَجَبْتَهُ وَهَدَيْتَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: 120 - 123]. فإن تحريم يوم السبت على اليهود دليل على نكوبهم عن ملة إبراهيم عليه السلام.

### المبحث الثاني

#### القصة بإيجاز

قرية عامرة زاخرة، وهبها الله تعالى مزايا قل أن تجتمع في غيرها من القرى، فهي آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً، وقد أشرفت على ساحل البحر، مما رشحها موقعا تجارياً متميزاً. خير يتدفق وعطاء منهمر، وعيش رغيد، فما على أهل القرية إلا أن يشكروا ربهم ويخلصوا له الدين. بيد أن هناك من يُفسدُه النعيم، ويُطغيه المال، وتلهيه الآمال، فلا يُقيم للشرعية وزناً، ولا يحفظ للأنبيا عهداً، بل يستخف ويستهن، ويلتمس الحيل ويصطنع المعاذير، للتفلت من الأحكام، والتوثب على الحرام، بدافع الحرص والطمع، وبوازع الأنانية والجشع، كما فعل أصحاب هذه القرية التي كانت هادئة هانئة. حرّم الله على اليهود العمل يوم السبت، بعد أن آثروا هواهم على ما فرض الله عليهم، فضّلوا عن يوم الجمعة، وفضّلوا يوم السبت، وافتروا على الله الكذب، فحرّم الله عليهم العمل فيه، وابتلاهم بظهور الحيتان شارعةً بالقرب من شواطئهم، فأمسوا يتصنعون الحيل توسلاً بها إلى الحرام، حتى انتهكوا حرمة السبت، فنصبوا الشباك من يوم الجمعة

ليلتقطوها يوم الأحد، وكثرت الحيلُ الشيطانيةُ فيهم وشاعت بينهم، حتى بات الحرامُ أمراً مألوفاً، وأمس المنكرُ معروفاً، وصارت الحيلُ ضروباً، وفنوناً. فماذا عن موقفِ الدعاةِ المصلحين؟ لقد جنّدوا أنفسهم لدعوة القومِ ونصحهم، وملاحظتهم هنا وهناك بالكلمة الطيبة والموعظة البليغة، ولعل هناك من استجاب، لكن الغالبية الدهماء بقيت سادرةً في غيها، مُنكبةً على مطامعها، وثمة طائفةٍ أخرى لم يقعوا في المحذور بل كرهوه وقاطعوه، وإن لم يكونوا مع الواعظين؛ فقد دبَّ فيهم اليأسُ وتسلل الإحباطُ، فاستسلموا للأمر، دون مقاومة تذكر، منتظرين قضاء الله في الظالمين، حتى اعتزلوا الناس وترقبوا عذاب الله للفسقة المحتالين، بل وتعجّبوا من حال إخوانهم المصلحين، كيف يُصيِّعون أوقاتهم مع أولئك الهالكين الذين لا جدوى من نصحتهم ولا ثمرة لدعوتهم، فبادروهم بسؤالٍ يُفصح عما جال في خاطرهم وجاش في صدورهم، فكانت الإجابة الشافية الجامعة، النابعة من نفوس صافية وقلوب مطمئنة: ﴿مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكَ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ﴾، إنها رسالتهم يؤدّونها كما يجب، وحجّتهم يُعدّونها قبل أن تُنصب الموازين، ويقوم الناس لرب العالمين، مع إشفاقهم ورجائهم لإخوانهم المذنبين أن يتوبوا ويرجعوا إلى ربهم. لكن الأيام تمرُّ والزمان ينصرم، دون أن يترك بارقة أملٍ أو بادرة توبة، مما زاد القلوب قسوةً، وصارت النفوس أعظم جرأة على حُرْمَاتِ الله، لما طال عليهم الأمد، فلا موعظة تنفع، ولا نائبة من نوائب الدهر تردع، ولا قوة للحق تمنع، والمحتال لا يزال يلهو ويرتع، ويخصب ويمرع، حتى انقضى أجل الإمهال وحلت ساعة النكال، وحقّت كلمة العذاب، بعذابٍ حلٍّ وأوجع. ومن العجيب أنهم لم يستكينوا لربهم ولم يتضرعوا له ليرفع عنهم العذاب، بل لجّوا في عُتُوِّهم وتمادّوا في طغيانهم، فاستحقّوا الخزي والهوان، وبأءوا بالذلِّ والعار، حيث مسحهم الله قردةً خاسئين؛ إذ انتكست نفوسهم وتردّت أخلاقهم، فكانوا عبرةً للمعتبرين، وموعظةً للممتقين.

## المبحث الثالث

### بيان القصة

قال تعالى: ﴿ وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا تَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذْرَةٌ لِّكَ رَبِّكَزُّ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهَوُّوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ [الأعراف: 163 - 166] .

﴿ وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ لا يزال السياق في شأن اليهود، فبعد الحديث عن أمرهم بدخول بيت المقدس، وكيف تعتتوا وعاندوا، وبدلوا القول، جاء الحديث عن قرية من القرى التي سكنها اليهود، وعاثوا فيها فسادا، وهي قرية «أيلة» كما حكى كثير من المفسرين، تُشرف على لسان البحر الأحمر من جهة خليج العقبة. وفي سؤا لهم عن القرية تذكير لهم بصفحة منسية في تاريخهم، وإقامة الحجّة عليهم؛ بأنه لا سبيل لمحمد ﷺ كي يعرف ذلك إلا عن طريق الوحي الإلهي، وإلا فأتى لهذا النبي العربي الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب، ولم يتلق عن الأحرار أو الرهبان؟ فلم يبق إلا طريق واحد هو طريق الله تعالى، الذي قال: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الّٰكْفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَسْمَعُ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: 47 - 49]. وتأتي القصة قارعة لليهود زاجرة لهم، لئلا يصيبهم مثل ما أصاب أسلافهم حين احتالوا على شرع الله وانتهكوا محارم الله فأخذوا بالعذاب البئيس. ﴿ وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ

حَاضِرَةُ الْبَحْرِ ﴿﴾: سلهم سؤال تذكيرٍ وتأنيبٍ، عن تلك القصة المنسيّة، وعن هذه الصفحة المطويّة، سلهم سؤال تقريرٍ وتحذيرٍ، من سوء العاقبة، كما حلّ بمن سَلَف، فهل من معتبرٍ! وفي التعبير عن تلك القرية بأنها كانت حاضرة البحر ما يدلُّ على عظيم قدرها، كما قال أبو حيان في البحر: يحتمل أن يريد معنى الحاضرة على جهة التعظيم لها، أي هي الحاضرة في قرى البحر... فالتقدير حاضرة قرى البحر أي يحضر أهل قرى البحر إليها لبيعهم وشرائهم وحاجتهم»<sup>(1)</sup> كما يفيد وصفها بكونها حاضرة البحر أنها قريبةٌ منه، لصيقةٌ به، قال ابنُ عاشور: «ووصفت بأنها حاضرة البحر: بمعنى الاتصال بالبحر والقرب منه، لأن الحضور يستلزم القرب، وكانت (أيلة) متصلةً بخليج من البحر الأحمر وهو القلزم»<sup>(2)</sup>. وهذه القرية كانت عامرةً زاخرةً، يُمسي أهلها ويصبحون في نعم الله الوافرة، التي أفاضها عليهم من البرِّ والبحر، فالبحرُ مصدرٌ ثرٌّ للخيرات، وموردٌ متجددٌ للبركات، والقرية بموقعها المتميز حاضرة البحر، كما يقال عن الإسكندرية: عروس البحر، وكما يقول أهل مصر على مدنها النيلية: عروس النيل، أي زينته وحليته ودُرَّتُهُ. ومن ثمَّ جاء التعبير القرآني الدقيق عن القرية بأنها { كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ }، فنعم الله في البحار لا تعدُّ ولا تحصى، وعلى ضفاف البحار وجنبات الأنهار كم سُيِّدَت مدائنُ، وُبُنِيَت حضاراتُ، حتى الكثير من الطرق البرية كانت تسلكُ ساحل البحر، لسهولة ويسره، واختصاره، ووضوح معالمه، وكثرة حواضره، فتنتعش القرى الساحلية، وتظل عامرةً.

(1) أبو حيان، البحر المحيط 4 (/ 332) باختصار.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير (8 / 327).

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي: يتجاوزون حدَّ الله فيه، وذلك باصطيادهم في هذا اليوم، وقد نهوا عنه، فنقضوا العهدَ وتجاوزوا الحدَّ بانتهاكِهِمْ لِحُرْمَةِ هذا اليوم.

وكان الله تعالى قد فرض عليهم يومَ الجُمعة، فاختلَفوا فيه وضلُّوا عنه واختاروا السبت، وعلَّلوا ذلك بالكذبِ والافتراءِ على الله تعالى، حيث أشاعوا أن الله تعالى استراح في هذا اليوم، بعد أن خلق السموات والأرض في ستة أيام، فخلدَ في اليوم السابع للراحة، فابتلاهم الله تعالى بأن حرَّم عليهم العمل في هذا اليوم. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: 124]. عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيِّدَ أُمَّهُمُ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّهُ، فَالْنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبِعٌ، الْيَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ)<sup>(1)</sup>. قال القرطبي: «وكان السبتُ تغليظًا على اليهود في رفض الأعمال وترك التبسيط في المعاش بسبب اختلافهم فيه»<sup>(2)</sup>.

وعنه رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهَذَا الْيَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّهُ، فَغَدًا لِلْيَهُودِ، وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى، فَسَكَتَ)<sup>(3)</sup>. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِبَتَانُهُمْ يَوْمَ سَكَتِهِمْ شُرَعًا﴾: بظلم من بني إسرائيل وبسبب تعنتهم وتنطعهم؛ حرَّم الله

(1) رواه البخاري في صحيحه عن أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه كتاب الجمعة - باب فَرَضِ الْجُمُعَةِ حَدِيث 876، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الجمعة - باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (2 / 585) 19 - (855).

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (10 / 199).

(3) رواه البخاري في صحيحه عن أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه كتاب الجمعة - باب فَرَضِ الْجُمُعَةِ حَدِيث 896.



تعالى عليهم طيبات كثيرة كانت قد أُحِلَّتْ لهم، كما حَرَّمَ اللهُ تعالى عليهم العملَ يوم السبت ابتلاءً لهم، لما طُبِعُوا عليه من فُسُوقٍ وعصيانٍ، وِجْحُودٍ ونَسْيَانٍ، ومن جملةِ البلاءِ أن تأتيهم الحيتان يوم سبتهم شُرْعًا، تروح وتغدو شارعةً، ظاهرةً على الماء من كل ناحية، تلوح كأنها شراع السفن. «... فتقرب الحيتان وتكثر حتى يمكن أخذها باليد، فإذا كان ليلة الأحد غابت بجملتها، وقيل غاب أكثرها ولم يبق منها إلا القليل الذي يتعب صيده، ... ففتنهم ذلك وأضر بهم، فتطرقوا إلى المعصية بأن حفروا حفراً يخرج إليها ماء البحر على أخدود، فإذا جاء الحوت يوم السبت وحصل في الحفرة ألقوا في الأخدود حجراً فمنعوه الخروج إلى البحر، فإذا كان الأحد أخذوه فكان هذا أول التطرُّق.<sup>(1)</sup>

﴿وَيَوْمَ لَا يُسْئَلُونَ لِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ : فهذا من ابتلاء الله لهم بسبب ما كانوا عليه من فسق ظاهر. كما يفيد التعبير بالفعل المضارع على استمرارهم وإصرارهم على الفسوق الذي كان سبب بلائهم، فما نَجَّوْا من هذا البلاء بل وقعوا في المحذور باحتياهم على شرع الله، وانتهاكهم حرمة هذا اليوم الذي حرَّمه اللهُ، حتى سرت هذه الحيل وعمت، وانتشرت في القرية انتشار النار في الهشيم، وبأشرها عامة الناس إلا من عصمه الله تعالى من الصُّلحاء الأتقياء الذين انقسموا إلى طائفتين: الأولى: بادرت إلى الإنكار وأدَّت واجبها في النصح والإرشاد.

والثانية: غلبها اليأس وهزمها العجز، فنأت بنفسها، واعتزلت من حولها، وباتت ترقب عذاب الله للعصاة الذين تجاوزوا الحدود. ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا أَلْفَهُ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَزُورًا﴾ : حيث اجتمع الصُّلحاء وتجاوزوا وتشاؤروا في شأن المفسدين، فتساءلت طائفة منها

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز، (3 / 113) بتصرف.

عن جدوى المواعظ وفائدتها مع أولئك المشرفين على الهلاك، المستوجبين للعذاب! المصرين على العصيان! سألوها سؤال المتعجب، علّهم يجدون للواعظين حجة، فيلتقي الفريقان وتجتمع الطائفتان على كلمة سواء: تقول الطائفة الأولى: ﴿لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بسبب تمردهم وعصيانهم ومكرهم واحتياهم!

وقد أفصح هذا القول عن إنكارهم، وأبان عن تبرؤهم من صنيع الراكبين متن الحيل إلى ما حرّم الله، وعن يقينهم بعذاب وهلاك أولئك الفساق، وإن لم يكلفوا أنفسهم عناء الإنكار على المحتالين، أو لعلهم فعلوا ذلك مرارا ثم كفوا عنه، لعدم جدواه. لكن جواب الواعظين كان شافيا كافيا، جامعا وقاطعا لكل ما يتبادر في النفوس من حيرة وتساؤل، حيث قالوا: ﴿مَعذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَ وَعَلَيْهِمْ يَنْفُونَ﴾. فهم يؤذون واجبههم الشرعي الذي سيسألون عنه: أثمر أم لم يثمر، لكنهم بأي حال على رجاء وأمل في استجابتهم وامتثالهم، فليس الأمر مجرد رسالة تؤدى وأمانة يلقبها الداعية عن كاهله، أو كلمة يقولها ثم ينصرف مأجورا، بل هي رسالة حبّ ورحمة، ورسالة أمل ورجاء.

فكان هدفهم من مواعظهم أداء واجبههم، مع رجائهم في هداية غيرهم.<sup>(1)</sup> أي: لِنُعَذَرَ فِيهِمْ، ونقيم الحجة عليهم، ﴿وَعَلَيْهِمْ يَنْفُونَ﴾ أي يتحاشون الذنوب

(1) قال ابن الجزري في النشر في القراءات العشر - (2 / 272): (وَإِخْتَلَفُوا) فِي مَعذَرَةٍ، فَرَوَى حَفْصٌ بِالنَّصْبِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالرَّفْعِ. وقولهم: (مَعذَرَةٌ): قُرِئَتْ بِالرَّفْعِ: أَي مَا نَفَعْلُهُ مَعذَرَةٌ، أَوْ هَذِهِ مَعذَرَةٌ، أَوْ مَوْعِظَتُهُمْ مَعذَرَةٌ، وَبِالنَّصْبِ: (مَعذَرَةٌ) أَي فَعَلْنَا ذَلِكَ مَعذَرَةً؛ أَي لِأَجْلِ المَعذَرَةِ، أَوْ نَعِظُهُمْ مَعذَرَةً، قَالَ فِي إِتْحَافِ فَضَلَاءِ البَشَرِ فِي القَرَاءَاتِ الأَرْبَعَةِ عَشَرَ (1 / 410): «وَإِخْتَلَفَ فِي (مَعذَرَةٌ) فَحْفَصُ بِالنَّصْبِ عَلَى المَفْعُولِ مِنْ أَجْلِهِ أَي وَعِظَانَهُمْ لِأَجْلِ المَعذَرَةِ أَوْ عَلَى المَصْدَرِ أَي =تَعْتَذِرُ مَعذَرَةً أَوْ عَلَى المَفْعُولِ بِهِ لِأَنَّ المَعذَرَةَ تَتَضَمَّنُ كَلَامًا وَحَيْثُ تَنْصِبُ بِالقَوْلِ كَقَلْتِ خُطْبَةً... والعذر التنصل من الذنب».

والعصيان، ويخافون الملك الديان، فنحن لا نياسُ من موعظتهم، ولا نملُّ من نصحهم أملاً في رجوعهم.

«قال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افرقت ثلاث فرق: فرقة عصت وصادت وكانت نحو سبعين ألفاً، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تعص، وفرقة اعتزلت ونهت ولم تعص، فقالت الطائفة التي لم تنه ولم تعص للفرقة الناهية: {لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا}؟ يريدون الفرقة العاصية {اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ} قالوا ذلك على غلبة الظنِّ لما جرت به عادة الله من إهلاك العصاة أو تعذيبهم، من دون استئصال بالهلاك، فقالت الناهية: موعظتنا معذرة إلى الله ولعلمهم يتقون . ولو كانوا فرقتين فقط ناهية غير عاصية، وعاصية لقال: لعلكم تتقون<sup>(1)</sup>.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْمَعًا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّرِّ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: حتماً هناك من أصم الآذان وقابل المواعظ بالاستخفاف والإعراض، كما كان لهذه المواعظ أثرها الفعلي على القليل، وأثرها الوقتي لدى آخرين، لكنها سرعان ما تلاشت لتعود نفوسهم متعطشة إلى التوثب على محارم الله، ناسيةً مواعظ الواعظين وغافلةً عن تذكرة المذكرين، حتى أخذ العصاة بالعذاب البئيس، الأليم الشديد الوجيع، الذي لا رجعة فيه .

{فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهِوا عَنْهُ} أي: تجاوزوا الحد في معصية الله سبحانه تمرداً وتكبراً، وإعراضاً عن المواعظ وإغفالاً للزواجر {قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}: بُعداء من كل خير أي: أمرناهم أمراً كونياً لا أمراً شرعياً، فمسخناهم قردة، قيل: إنه سبحانه عدبهم أولاً بسبب المعصية، فلما لم يقلعوا مسخهم قردةً<sup>(2)</sup>. «وروي أن الناهين قسّموا المدينة بينهم وبين العاصين بجدار، فلما أصبحوا ليلة

(1) الشوكاني، فتح القدير - (3 / 108).

(2) يراجع: الطبري، جامع البيان (13 / 203).

أهلك الله العاصون لم يفتح مدينة العاصين حتى ارتفع النهار فاستراب الناهون لذلك فطلع أحد الناس على السور فرآهم ممسوخين قرده تتوالب، فصاح، فدخلوا عليهم يعرف الرجل قرابته ويعرف القرد أيضاً كذلك قرابته، وينضمون إلى قرابتهم فيتحسرون»<sup>(1)</sup>.

وروى الطبري في جامعه عن مالك، قال: زعم ابن رومان<sup>(2)</sup> أن قوله: {تَأْتِيهِمْ حِيَتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْتَبُونَ لَا تَأْتِيهِمْ} قَالَ: كَانَتْ تَأْتِيهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ، فَإِذَا كَانَ الْمَسَاءُ ذَهَبَتْ فَلَا يَرَى مِنْهَا شَيْءٌ إِلَى السَّبْتِ، فَاتَّخَذَ لِذَلِكَ رَجُلٌ مِنْهُمْ خَيْطًا وَوَتْدًا، فَرَبَطَ حُوتًا مِنْهَا فِي الْمَاءِ يَوْمَ السَّبْتِ، حَتَّى إِذَا أَمْسُوا لَيْلَةَ الْأَحَدِ أَخَذَهُ فَاشْتَوَاهُ، فَوَجَدَ النَّاسَ رِيحَهُ، فَاتَّوَهُ فَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ، فَجَحَدَهُمْ، فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى قَالَ لَهُمْ: إِنَّهُ جِلْدُ حُوتٍ وَجَدْنَاهُ، فَلَمَّا كَانَ السَّبْتُ الْآخَرَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَلَا أَذْرِي لَعَلَّهُ قَالَ: رَبَطَ حُوتَيْنِ، فَلَمَّا أَمْسَى مِنْ لَيْلَةِ الْأَحَدِ أَخَذَهُ فَاشْتَوَاهُ، فَوَجَدُوا رِيحَهُ، فَجَاءُوا فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ لَهُمْ: لَوْ شِئْتُمْ صَنَعْتُمْ كَمَا أَصْنَعُ، فَقَالُوا لَهُ: وَمَا صَنَعْتَ؟ فَأَخْبَرَهُمْ، فَفَعَلُوا مِثْلَ مَا فَعَلَ، حَتَّى كَثُرَ ذَلِكَ. وَكَانَتْ لَهُمْ مَدِينَةٌ لَهَا رَبْضٌ، فَغَلَّقُوهَا عَلَيْهِمْ، فَأَصَابَهُمْ مِنَ الْمُسَخِ مَا أَصَابَهُمْ، فَغَدَا إِلَيْهِمْ حَيْرَانُهُمْ مِمَّنْ كَانَ يَكُونُ حَوْهْمَ، يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ مَا يَطْلُبُ النَّاسُ، فَوَجَدُوا الْمَدِينَةَ مُغْلَقَةً عَلَيْهِمْ، فَنَادَوْا فَلَمْ يُجِيبُوهُمْ، فَتَسَوَّرُوا عَلَيْهِمْ، فَإِذَا هُمْ قَرْدَةٌ، فَجَعَلَ الْقَرْدُ يَدْنُو يَتَمَسَّحُ بِمَنْ كَانَ يَعْرِفُ قَبْلَ ذَلِكَ وَيَدْنُو مِنْهُ وَيَتَمَسَّحُ بِهِ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الْفِرْقَةُ الَّتِي قَالَتْ: {لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ} كَانَتْ مِنَ الْفِرْقَةِ الْهَالِكَةِ.<sup>(3)</sup>

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز (3 / 116) بتصرف .

(2) يزيد بن رومان الأسدي، أبو روح المدني، مولى آل الزبير بن العوام، من صغار التابعين ت 130 هـ ثقة ثبت فقيه قارئ محدث. ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء (1 / 444).

(3) الطبري، جامع البيان، (10 / 520). والربض ما حول المدينة من فضاء لا دور فيه.

وَعَنْ عِكْرِمَةَ<sup>(1)</sup> عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: ابْتَدَعُوا السَّبْتَ، فَأَبْتَلُوا فِيهِ، فَحَرِّمَتْ عَلَيْهِمْ فِيهِ الْحَيْتَانِ، فَكَانُوا إِذَا كَانَ يَوْمُ السَّبْتِ شَرَعَتْ لَهُمُ الْحَيْتَانِ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا فِي الْبَحْرِ، فَإِذَا انْقَضَى السَّبْتُ ذَهَبَتْ، فَلَمْ تَرُ حَتَّى السَّبْتِ الْمُقْبِلِ، فَإِذَا جَاءَ السَّبْتُ جَاءَتْ شُرْعًا، فَمَكُّثُوا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمَكُّثُوا كَذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ أَخَذَ حُوتًا فَخَزَمَ أَنْفَهُ، ثُمَّ ضَرَبَ لَهُ وَتَدًّا فِي السَّاحِلِ وَرَبَطَهُ وَتَرَكَهُ فِي الْمَاءِ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ أَخَذَهُ فَشَوَاهُ فَأَكَلَهُ، فَفَعَلَ ذَلِكَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَلَا يُنْكِرُونَ، وَلَا يَنْهَاهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا عَصَبَةٌ مِنْهُمْ نَهَوْهُ، حَتَّى ظَهَرَ ذَلِكَ فِي الْأَسْوَاقِ وَفُعِلَ عِلَالِيَّةً، قَالَ: فَقَالَتْ طَائِفَةٌ لِلَّذِينَ يَنْهَوْنَ: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَى رَبِّكُمْ﴾ فِي سَخَطِنَا أَعْمَاهُمْ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا سَوُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانُوا أَثَلَاثًا: ثُلُثُ نَهْوًا، وَثُلُثُ قَالُوا: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وَثُلُثُ أَصْحَابُ الْخَطِيئَةِ. فَمَا نَجَا إِلَّا الَّذِينَ نَهَوْا، وَهَلَكَ سَائِرُهُمْ، فَأَصْبَحَ الَّذِينَ نَهَوْا عَنِ الشُّوْرِ ذَاتَ يَوْمٍ فِي مَجَالِسِهِمْ يَتَفَقَّدُونَ النَّاسَ لَا يَرَوْنَهُمْ، فَعَلَقُوا عَلَيْهِمْ دُورَهُمْ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: إِنَّ لِلنَّاسِ لَشَأْنَا، فَاَنْظُرُوا مَا شَأْنُهُمْ، فَاطَّلَعُوا فِي دُورِهِمْ، فَإِذَا الْقَوْمُ قَدْ مَسَّحُوا فِي دِيَارِهِمْ قِرَدَةً، يَعْرِفُونَ الرَّجُلَ بَعِينَهُ وَإِنَّهُ لَقِرْدٌ، وَيَعْرِفُونَ الْمَرْأَةَ بَعِينَهَا وَإِنَّهَا لَقِرْدَةٌ، قَالَ اللَّهُ: ﴿جَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾<sup>(2)</sup>.

وَعَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَالْمُصْحَفُ فِي حِجْرِهِ وَهُوَ يَبْكِي، فَقُلْتُ: مَا يُبْكِيكَ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ؟ قَالَ: فَقَرَأَ: ﴿وَسَأَلْتُهُمْ عَنِ الْقُرْبِيِّ أَلَيْ كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا

(1) عكرمة القرشي الهاشمي، أبو عبد الله المدني، مولى عبد الله بن عباس، ثقة ثبت عالم بالتفسير ت 104 هـ وقيل بعد ذلك بالمدينة، روى له الشيخان وأصحاب السنن الأربعة. انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء (11 / 9).

(2) الطبري، جامع البيان، (10 / 514).

أَسْمَعُ الْفِرْقَةَ الثَّلَاثَةَ ذُكِرَتْ نَخَافُ أَنْ نَكُونَ مِثْلَهُمْ . فَقُلْتُ: أَمَا تَسْمَعُ اللَّهُ يَقُولُ: { فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ } فَسَرِّي عَنْهُ وَكَسَانِي حُلَّةً<sup>(1)</sup>. أي فكانت عقوبة المسخ لمن اقرتف، دون من لم يقترف، أنكر أم لم ينكر.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: «كَانُوا قَدْ بُلُوا بِكَفِّ الْحَيْتَانِ عَنْهُمْ، وَكَانُوا يَسْبِتُونَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ، وَلَا يَعْمَلُونَ فِيهِ شَيْئًا، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ السَّبْتِ أَتَتْهُمُ الْحَيْتَانُ شَرَّعًا، وَإِذَا كَانَ غَيْرُ يَوْمِ السَّبْتِ لَمْ يَأْتِ حُوتٌ وَاحِدٌ، قَالَ: وَكَانُوا قَوْمًا قَدْ فُرِنُوا بِحُبِّ الْحَيْتَانِ، وَلَقُوا مِنْهُ بَلَاءً، فَأَخَذَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حُوتًا، فَرَبَطَ فِي ذَنْبِهِ خَيْطًا، ثُمَّ رَبَطَهُ إِلَى خَشَبَةٍ، ثُمَّ تَرَكَهُ فِي الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ مِنْ يَوْمِ الْأَحَدِ اجْتَرَّهُ بِالْحَيْطِ، ثُمَّ شَوَاهُ.

فَوَجَدَ جَارًا لَهُ رِيحَ حُوتٍ، فَقَالَ: يَا فَلَانُ إِنِّي أَجِدُ فِي بَيْتِكَ رِيحَ نُونٍ، فَقَالَ: لَا. قَالَ: فَتَطَّلَعَ فِي تَنُورِهِ فَإِذَا هُوَ فِيهِ فَأَخْبَرَهُ حَبِيبُ الْحَبْرِ، فَقَالَ: إِنِّي أَرَى اللَّهَ سَيُعَذِّبُكَ. قَالَ: فَلَمَّا لَمْ يَرَهُ عَجَلَ عَذَابًا، فَلَمَّا أَتَى السَّبْتُ الْآخَرَ أَخَذَ اثْنَيْنِ فَرَبَطَهُمَا، ثُمَّ أَطْلَعَ جَارًا لَهُ عَلَيْهِ. فَلَمَّا رَأَاهُ لَمْ يَعَجَلْ عَذَابًا جَعَلُوا يَصِيدُونَهُ، فَاطَّلَعَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ عَلَيْهِمْ، فَنَهَاهُمْ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَكَانُوا فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةٌ تَنْهَاهُمْ وَتَكْفُفُ، وَفِرْقَةٌ تَنْهَاهُمْ وَلَا تَكْفُفُ، فَقَالَ الَّذِينَ نَهَوْا وَكَفُّوا لِلَّذِينَ يَنْهَوْنَ وَلَا يَكْفُفُونَ: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فَقَالَ الْآخَرُونَ: ﴿مَعْدِرَةٌ إِلَيْكَ رَبِّكَمُ وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَفُونَ﴾ فَقَالَ اللَّهُ: ﴿فَلَمَّا سَأَلُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْمَعًا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ قَالَ اللَّهُ: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ وَقَالَ لَهُمْ أَهْلُ تِلْكَ الْقَرْيَةِ: عَمِلْتُمْ بِعَمَلِ سُوءٍ، مَنْ كَانَ يُرِيدُ يَعْتَرِلُ وَيَتَطَهَّرُ فَلْيَعْتَرِلْ هُوَ لَاءٌ، قَالَ: فَاعْتَرَلَ هُوَ لَاءٌ وَهُوَ لَاءٌ فِي مَدِينَتِهِمْ، وَصَرَبُوا بَيْنَهُمْ سُورًا، فَجَعَلُوا فِي ذَلِكَ السُّورِ أَبْوَابًا يَخْرُجُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ. قَالَ: فَلَمَّا كَانَ

(1) نفس المرجع (10 / 517).

اللَّيْلُ طَرَقَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابِهِ، فَأَصْبَحَ أَوْلِيكَ الْمُؤْمِنُونَ لَا يَرُونَ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَدَخَلُوا عَلَيْهِمْ، فَإِذَا هُمْ قِرَدَةٌ، الرَّجُلُ وَأَزْوَاجُهُ وَأَوْلَادُهُ. فَجَعَلُوا يَدْخُلُونَ عَلَى الرَّجُلِ يَعْرِفُونَهُ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ أَلَمْ نُحَدِّثْكَ سَطَوَاتِ اللَّهِ؟ أَلَمْ نُحَدِّثْكَ نَقَمَاتِ اللَّهِ؟ وَنُحَدِّثْكَ وَنُحَدِّثْكَ؟ قَالَ: فَلَيْسَ إِلَّا بُكَاءً. قَالَ: وَإِنَّمَا عَذَّبَ اللَّهُ الَّذِينَ ظَلَمُوا الَّذِينَ أَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ. قَالَ: وَأَمَّا الَّذِينَ نَهَوْا فَكُلُّهُمْ قَدْ نَهَى، وَلَكِنَّ بَعْضَهُمْ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ. فَقَرَأَ: ﴿أَفَمِنَّا الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنِ السُّوءِ وَأَعْدَانَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابِ بَعْضِهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾<sup>(1)</sup>.

(1) الطبري، جامع البيان، (10 / 517). والوالب: الفرخ من الزرع يجرُج في أصل الكبير. ويقال: وَلَبَّ الزَّرْعُ، إِذَا خَرَجَتْ لَهُ فِرَاحٌ. ابن دريد، الاشتقاق (1 / 492). وفي الصحاح (2 / 293): الوالب: الذاهب في الشيء الداخل فيه... وولب بنو فلان: كثر عددهم، ونموا. وخزم (البعير) يجزمه خزمًا: (جعل في جانب منخره الحزام ككتابة، للبرة)، وهي حلقه من شعر تجعل في وتره أنفه يشد بها الزمام. الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (32 / 78). ونزلوا في رضى المدينة والقصر وهو ما حولهما من مساكن الجند وغيرهم. تاج العروس (18 / 330). وابن زيد هو: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، لم يدرك إلا بعض التابعين وكان صاحب قرآن وتفسير، جمع تفسيراً في مجلد، وكتاباً في الناسخ والمنسوخ. توفي: سنة 182هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء (15 / 362).

## المبحث الرابع

### دروس وعبر مستفادة من القصة

أولاً : تحذير اليهود والحذر منهم ومن الوقوع فيما وقعوا فيه

تكشف لنا هذه القصة عن صفحات مطوية من تاريخ اليهود، والحكمة من نشر هذه الصفحات: تحذير اليهود الذين يسلكون هذه المسالك الملتوية، ويركبون متن هذه الحيل المحرمة من مغبة الذنوب والعصيان وعاقبة الخداع والاحتيال. وفي القصة تحذير لنا من سوء طبائع اليهود وخبث طويتهم، وخداعهم حتى نكون في معاملتهم على حذر، وأن نحذر الوقوع فيما وقعوا فيه حتى لا يصيبنا ما أصابهم . وتلك القرية نموذج للمجتمع اليهودي، الذي يسود فيه الكذب والخداع وتعلو أصوات العصاة والمحتالين، بينما يخفت نداء العدل، ويصدر صوت الحق، ويقل الناصحون، بل تبدد دعواتهم في وسط الزحام، وتضيع جهودهم في قلب الركام، كما هو الحال الآن في «الكيان الصهيوني» الذي غرسته أيد الاستعمار الأثمة في قلب الأرض المقدسة، ومع ما جُبلت عليه قلوب المعتصيين من قسوة وغدر وعداوة وبغضاء، إلا أن تلك المجتمعات لا تخلو من وجود قليل من المنصفين هذه القلة قليلة قد بحثت أصواتها في وجه المعتدين لكن أصواتهم لا تكاد تُسمع في قلب هذا الصخب والضجيج. والقصة تدل على إنصاف القرآن الكريم: فكما ذكر هذا المثال السيئ للمحتالين على شرع الله، ذكر النموذج الصالح للمصلحين الواعظين من بني إسرائيل من الناصحين الصادقين والذين لا يكاد يخلو منهم زمان، لكن صوتهم يضيع في وسط هذا الصخب وذاك الزحام، كما هو الحال الآن حتى في قلب الكيان الصهيوني نسمع بعض الأصوات الصادقة لكنها لا تأثير لها في خضم الأغلبية الساحقة من اليهود الغاصبين المعتدين. ولا يزال اليهود يمارسون التحايل على حرمة السبت في شريعته بالحيل المصطنعة التي تنم عما طبعوا عليه من المراوغة والتفلسف



والأخذ ببعض الأحكام وترك الباقي، وبعض هذه الحيل قد يُثير الضحك وربّما الاشمزاز مما صار إليه حالهم. (1)

ثانياً: القصة دليلٌ قاطعٌ على صدق نبينا ﷺ؛ لأنه لا سبيل لمعرفة هذه الأحداث إلا بالوحي الإلهي، فهي حجةٌ ظاهرةٌ على نبوته ﷺ؛ ذلك أن هذه القصة نشرت صفحات مطوية في تاريخ اليهود، لطالما تواطئوا على كتبها، بينما كان النبيُّ العربيُّ أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يختلف إلى أحد من أهل الكتاب، ولم يخالطهم، حتى يُطلعوه على خباياهم، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَنَّكَ أَنْزَلْتَهُ بِالْمَبْطُونِ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: 47-49]. قال الرازي: «ولما كان النبي ﷺ رجلاً أمياً لم يتعلم علماً، ولم يطالع كتاباً، ثم إنه يذكر هذه القصص على وجهها من غير تفاوت ولا زيادة ولا نقصان، كان ذلك جارياً مجرى المعجز. (2)

ثالثاً: سنة الابتلاء: الابتلاء كما يقع بالخير يقع بالشر، فيكون بالفتن والمحن، كما يكون بالنعم والمنح. «ابتلى الله أهل تلك القرية بنوع من البلاء قد غفل عنه

(1) ونظراً لأنه محرّم على اليهود القيام بأي نشاط في يوم السبت (مثلاً إيقاد النار بها في ذلك النار التي تُوقد للطهو)، فقد نتج عن ذلك أسلوب في إعداد الطعام يتمثل في الطهي على نار هادئة ابتداءً من مساء يوم الجمعة وحتى يوم السبت. كما تم التوصل كذلك إلى أدوات كهربائية ذات مفاتيح زمنية يتم ضبطها قبل يوم السبت، بحيث تنير من تلقاء نفسها يوم السبت. كما أفتى أحد الحاخامات أنه لا مانع من أن تقوم القروود أو الكلاب المدربة على إطفاء الأنوار (يوم السبت) والقيام بأعمال منزلية أخرى، إذا لم تكن هذه الحيوانات من ممتلكات العائلة (ففي هذه الحالة تُعتبر جزءاً من الأسرة) وعليها أن ترتاح مع باقي أعضاء الأسرة. كما صرّح بلعب كرة القدم يوم السبت على أن تُباع التذاكر يوم الجمعة لحزمة البيع يوم السبت. عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، (7 / 104).

(2) الرازي، التفسير الكبير (15 / 391).

الكثير من الناس اليوم؛ حيث إن الناس يحسبون الابتلاء نوعين: إما بالخير ورغد العيش، وإما بالشر والمصائب، ويستشهدون بقول الله تعالى: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالنَّارِ وَالْخَيْرِ فَتَنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35]، ويجهلون معناها، والحق أن هناك نوعاً ثالثاً هو أشد الأنواع وأخطرهما، وقد رتب الله على من أخفق وخسر فيه عقوبة شديدة، ألا إنه الابتلاء بالمعاصي والفتن، فأولئك القوم قد نهاهم الله عن صيد السمك يوم السبت، فصار السمك في حقهم في ذلك اليوم معصية وإثمًا، ثم قرّبه الله إليهم ويسره لهم ليلتيهم ويختبرهم<sup>(1)</sup>. قال الرازي: «وقوله: {كَذَلِكَ تَبْلُوكُمْ} أي مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم، وذلك يدلُّ على أن من أطاع الله تعالى خفف الله عنه أحوال الدنيا والآخرة، ومن عصاه ابتلاه بأنواع البلاء والمحن»<sup>(2)</sup>.

#### رابعاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقاصده العلياء، فهو واجب شرعيٌّ وأمرٌ ضروريٌّ، وهو الطريقُ إلى الإصلاح المنشود، والسبيلُ إلى الفلاح المأمول، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قيامٌ بواجبٍ حتميٍّ، وأداء رسالة سامية، وليس كما يدّعيه البعض أنه حجرٌ على العقول وتقييدٌ للحريات وحبسٌ للأنفاس وتضييقٌ على الناس، أو تدخلٌ في شؤونهم، وتعرضٌ لخصوصياتهم، أو اعتداء على حرياتهم وسلب لإرادتهم، بل هو قيمة إنسانية عظيمة، وشرعة ربانية حكيمة، ورسالة إيجابية كريمة، ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ آمَنَّا مِنْهُمْ﴾ [هود: 116]. عن

(1) د. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن (1 / 575).

(2) الرازي، التفسير الكبير (1 / 2076).

ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ! ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنْ الْعَدِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيْبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ثُمَّ قَرَأَ صلى الله عليه وسلم ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة المائدة]، ثُمَّ قَالَ: (كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدَيْ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا)<sup>(1)</sup>.

وعن النعمان بن بشير، رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَفَقُوا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَّوْا جَمِيعًا)<sup>(2)</sup>.

قال ابن العربي: «لَمَّا فَعَلُوا هَذَا نَهَاهُمْ كِبْرًا وَهُمْ، وَوَعَظَهُمْ أَحْبَابُهُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ، فَاسْتَمَرُّوا عَلَى تَهْيِئِهِمْ هُمْ، وَلَمْ يَمْنَعِ مِنَ التَّمَادِي عَلَى الْوَعْظِ وَالنَّهْيِ عَدَمَ قَبُولِهِمْ؛ لِأَنَّهُ فَرَضَ قَبْلَ أَوْ لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّى قَالَ لَهُمْ بَعْضُهُمْ: { لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا

(1) رواه أبو داود في السنن كتاب الملاحم. باب الأمر والنهي. الحديث رقم: 4336- وابن ماجه في السنن - كتاب الفتن. باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. الحديث رقم: 4006- والترمذي في السنن وقال حسن غريب - سنن الترمذي كتاب التفسير باب 6 ومن سورة المائدة حديث 3058 وأحمد في مسنده 391/1.

(2) صحيح البخاري كتاب الشركة باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه (2 / 882) حديث 2361. (استهمو) اقترعوا ليأخذ كل منهم سهما أي نصيبا. (أخذوا على أيديهم) منعوهم من خرق السفينة.

اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ}؟ يَعْنِي فِي الدُّنْيَا، { أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا } فِي الآخِرَةِ؟ قَالَ لَهُمُ النَّاهُونَ: مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، أَيُّ نَقُومُ بِفَرْضِنَا؛ لِيُثَبَّتَ عُذْرُنَا عِنْدَ رَبِّنَا<sup>(1)</sup>.

خامسا: ذم الحيل غير المشروعة: الذي يحتال على شرع الله: ضعاف الإيمان، المستغرقون في المعاصي والشهوات، أصحاب المطامع والأهواء، أما صاحب القلب السليم، المعظم لله، الراجي رحمته فإنه بمنأى عن هذه الحيل، يأنف مقاربتها. «إن الشريعة والأوامر والتكاليف لا يعرفها إلا القلب المؤمن التقى، وإن القلوب الأخرى تكثر من التحايل على الأوامر والتكاليف، مثلما فعل اليهود، وهذا هو سرُّ نجاح الإسلام في تشريعه ونصوصه، حيث أحيا قلوب المؤمنين، وربطها بالله، فالتزمت القلوب بالنصوص والتشريعات، وهذا هو سرُّ فشل الأديان المحرفة والوضعية والأنظمة والمناهج والقوانين الأرضية، لأنها تغفل التعامل مع القلوب وتصطدم بالواقع ولا تضع حلولاً ناجعة لمشاكل الإنسان وأزماته ولا تلبى حاجياته، مما يؤدي إلى تفلت الإنسان ومراوغته بالحيل»<sup>(2)</sup>.

وتحذرننا هذه القصّة من مغبّة الحيل المحرّمة، وما تُفضي إليه من وبالٍ وخسرانٍ.

يقول صاحب الظلال: «وما أكثر الحيل عندما يلتوي القلب، وتقلُّ التقوى، ويصبح التعامل مع مجرد النصوص، ويراد التفلت من ظاهر النصوص! إن القانون لا تحرسه نصوصه، ولا يحميه حراسه. إنها تحرسه القلوب التقيّة التي تستقر تقوى الله فيها، فتحرس هي القانون وتحميه. وما من قانون تمكن حمايته أن يحتال الناس عليه! ما من قانون تحرسه القوة المادية والحراسة الظاهرية! ولن

(1) ابن العربي، أحكام القرآن (3 / 491).

(2) صلاح الخالدي، مع قصص السابقين في القرآن، 1 / 272 بتصرف.

تستطيع الدولة - كائناً ما كان الإرهاب فيها - أن تضع على رأس كل فرد حارساً يلاحقه لتنفيذ القانون وصيانتته؛ ما لم تكن خشية الله في قلوب الناس، ومراقبتهم له في السر والعلن .. من أجل ذلك تفشل الأنظمة والأوضاع التي لا تقوم على حراسة القلوب التقية. وتفشل النظريات والمذاهب التي يضعها البشر للبشر ولا سلطان فيها من الله .. ومن أجل ذلك تعجز الأجهزة البشرية التي تقيمها الدول لحراسة القوانين وتنفيذها. وتعجز الملاحقة والمراقبة التي تتابع الأمور من سطوحها! (1).

وقال ابن العربي: «هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أُمَّهَاتِ الشَّرِيعَةِ، وَفِيهَا مَسَائِلٌ ... مِنْهَا: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَسْأَلَ الْيَهُودَ إِخْوَةَ الْفِرْدَةِ وَالْخَنَازِيرَ عَنِ الْقَرْيَةِ الْبَحْرِيَّةِ الَّتِي اعْتَدَوْا فِيهَا يَوْمَ السَّبْتِ، فَمَسَخَهُمُ اللَّهُ بِاعْتِدَائِهِمْ قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ، لِيُعْرِفَهُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ بِتَغْيِيرِ فَرْعٍ مِنْ فُرُوعِ الشَّرِيعَةِ، فَكَيْفَ بِتَغْيِيرِ أَصْلِ الشَّرِيعَةِ (2). وضابط ما يجوز وما لا يجوز من الحيل: أن كل طريق مشروع يترتب على سلوكه تحقيق مقاصد الشرع من فعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه وإحياء الحقوق ونصر المظلوم والانتصاف من الظالم: فهو حلال مباح أو مستحب أو واجب يثاب فاعله والعدل عليه، وأن كل طريق يترتب عليه العبث بمقاصد الشرع من إسقاط الواجبات وتحليل المحرمات وقلب الحق باطلاً والباطل حقاً فهو محظور ويذم فاعله والعدل عليه (3).

يقول الشاطبي في الموافقات «لا يمكن إقامة دليل في الشريعة على إبطال كل حيلة كما أنه لا يقوم دليل على تصحيح كل حيلة وإنما يبطل منها ما كان مضاداً

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن - (3 / 308).

(2) لابن العربي أحكام القرآن - (3 / 489).

(3) يراجع بحيرى، محمد عبد الوهاب، الحيل في الشريعة الإسلامية والمؤلف كان أستاذاً للتفسير والحديث بكلية أصول الدين - سابقاً ص 23.

لقصد الشرع خاصة، وهو الذي يتفق عليه جميع أهل الإسلام، ويقع الاختلاف في المسائل التي تتعارض فيها الأدلة»<sup>(1)</sup> عن ابن عباس رضي الله عنه قَالَ بَلَغَ عُمَرُ رضي الله عنه أَنَّ فُلَانًا بَاعَ خَمْرًا فَقَاتَلَ اللَّهَ فُلَانًا أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ حَرَّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومَ فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا<sup>(2)</sup>. وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل).<sup>(3)</sup>

ويعلق الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - على قصة أصحاب السبت فيقول: «إن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قرده لما احتالوا على إباحة ما حرّمه الله تعالى من الصيد بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة، فلما وقع فيها الصيد أخذوه يوم الأحد؛ قال بعض الأئمة: ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعية ممن يتلبس بعلم الفقه وهو غير فقيه؛ إذ الفقيه هو من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده، وتعظيم حرّماته، والوقوف عندها، ليس المتحيل على إباحة محارمه، وإسقاط فرائضه، ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيباً لموسى عليه السلام، وكفراً بالتوراة، وإنما هو استحلال تأويل واحتيال، ظاهره ظاهر الاتقاء وباطنه باطن الاعتداء، ولهذا والله أعلم مسخوا قرده لأن صورة القرود فيها شبهة من صورة الإنسان، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبهة منه، وهو مخالف له في الحد والحقيقة، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله تعالى

(1) الشاطبي، الموافقات 2/ 237.

(2) صحيح البخاري باب بيع التصاوير التي ليس فيها روح وما يكره من ذلك. وأخرجه مسلم في المساقاة باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام رقم 1582. صحيح مسلم - (5 / 26) المساقاة باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام. ومعنى فجملوها، أذابوها.  
(3) رواه ابن بطة في «جزء في الخلع وإبطال الحيل» حديث (42) وإسناده جيد.

بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته مسخهم الله تعالى قرده؛ يشبهونهم في بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاء وفاقاً<sup>(1)</sup>.

سادسا: أثر الذنوب في هلاك الأمم والشعوب: من خلال هذه القصة يتبين لنا ما للذنوب من آثار وخيمة وعواقب أليمة على النفس والمجتمع، فشؤم المعصية إنما يلحق بالأمم والمجتمعات كما يحق بالأفراد والجماعات، وبالمعاصي زوال النعم وحلول النقم، قال تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 40] كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام: «مَا نَزَلَ بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَا رُفِعَ إِلَّا بِتَوْبَةٍ».

وَقَدْ قَالَ الْمَوْلَى جَل وَعَلَا: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [سُورَةُ الشُّورَى: 30]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لِمَنْ يَكُ مُغْتَرِبًا نِقْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: 53].

فَإِذَا غَيَّرَ الْعَبْدُ غَيْرَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِذَا بَدَّلَ نِعْمَةَ اللَّهِ كَفْرًا وَعَصِيَانًا بَدَّلَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ نِقْمَةً وَعَافِيَتَهُ بَلَاءً وَوَبَالَ.

قال الحسن البصري عن أصحاب السبت: «أكلوا والله أو حَمَّ أَكَلَتْ أَكَلَهَا أَهْلُهَا، أَثْقَلُهَا خِزْيًا فِي الدُّنْيَا وَأَطْوَلُهَا عَذَابًا فِي الْآخِرَةِ»<sup>(2)</sup>.

عن جبير بن نفير قال: «لما فتحت مدائن قبرص وقع الناس يقتسمون السبي، ويفرقون بينهم، ويبكي بعضهم على بعض، فتنحى أبو الدرداء ثم احتبى بحمائل سيفه فجعل يبكي، فأتاه جبير بن نفير، فقال: ما يبكيك يا أبا الدرداء؟ أتبكي في يوم أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله؟ وأذلَّ فيه الكفر وأهله؟ فضرب على

(1) ابن القيم، إعلام الموقعين، (3 / 209).

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، (3 / 59).

مَنْكِبِيهِ، ثم قال: ثَكَلْتِكَ أُمَّكَ يا جبير بن نفير، ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره! بينا هي أمة قاهرة ظاهرة على الناس، لهم الملك حتى تركوا أمر الله، فصاروا إلى ما ترى»<sup>(1)</sup>.

وقد عقد ابن القيم رحمه الله في كتابه الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي فصولاً عن آثار الذنوب الوخيمة، وعواقبها الأليمة، ذكر منها فصلاً بعنوان: المعاصي تُزيل النعم: قال فيه: «وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا أَنَّهَا تُزِيلُ النِّعَمَ الحَاضِرَةَ، وَتَقْطَعُ النِّعَمَ الوَاصِلَةَ، فَتُزِيلُ الحَاصِلَ، وَتَمْنَعُ الوَاصِلَ، فَإِنَّ نِعَمَ اللَّهِ مَا حُفِظَ مَوْجُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، وَلَا اسْتُجْلِبَ مَفْقُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، فَإِنَّ مَا عِنْدَهُ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا وَآفَةً، سَبَبًا يُجْلِبُهُ، وَآفَةً تُبْطِلُهُ، فَجَعَلَ أَسْبَابَ نِعَمِهِ الجَالِبَةَ لَهَا طَاعَتَهُ، وَآفَاتِهَا المَانِعَةَ مِنْهَا مَعْصِيَتَهُ، فَإِذَا أَرَادَ حِفْظَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ أَهْمَهُ رِعَايَتَهَا بِطَاعَتِهِ فِيهَا، وَإِذَا أَرَادَ زَوَالَهَا عَنْهُ خَذَلَهُ حَتَّى عَصَاهُ بِهَا»<sup>(2)</sup>. وَقَدْ أَحْسَنَ مِنْ قَالَ:

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَاهَا فَإِنَّ المعاصي تُزِيلُ النِّعَمَ .  
وَسَافِرٍ بِقَلْبِكَ بَيْنَ الوَرَى لِيُبْصِرَ آثَارَ مَنْ قَدْ ظَلَمَ .

سابعاً: عاقبة الأمن من مكر الله: إذا أوغل العبد في الذنوب والعصيان، وأطلق لنفسه العنان، وغلبت عليه الشقوة والنسيان، فإن مصيره لا محالة إلى الخيبة والخسران؛ إذ كيف يأمن مكر الإله من جاهر بالفسق والعصيان! كيف يأمن مكر الله من تمادى في الظلم والطغيان! كيف يأمن مكر الله من غرق في بحار الذنوب وتقاذفته أمواج النسيان! وألقته صريعاً على ساحل الحرمان! قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٧٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ

(1) سعيد بن منصور، السنن، (1/389).

(2) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ص 73.



بَأْسَنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ **أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾** [الأعراف : 97 - 100]. وَفِي الْحَدِيثِ يَقُولُ ﷺ: إِذَا رَأَيْتُمْ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَتِهِ ؛ فَإِنَّهَا ذَلِكَ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ . ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَسَّاسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ [الأنعام : 44] .<sup>(1)</sup>

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: رَبُّ مُسْتَدْرَجٍ بِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، وَرَبُّ مَعْرُوبٍ بِسِتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، وَرَبُّ مَفْتُونٍ بِثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ<sup>(2)</sup>.

ثامنا: ذم النسيان: النسيان آفة الآفات، فكم يجلب من عذاب وحسرات، وكم يفضي إلى آلام وزفريات: نسيان العبد لنفسه بأن يغفل وينسى مصالحه العاجلة والآجلة لأنها في تعاطي الذنوب، وعكوفه على اقرار المعاصي، ومن نسي نفسه ضيع حقه ونسي وضيع حقوق غيره عليه، ونسي بالأحرى حقوق الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ [سورة الحشر: 18 - 19]. « فترى العاصي مَهْمَلًا لمصالح نفسه مضيعًا لها، قد أغفل الله قلبه عن ذكره، واتبع هواه وكان أمره فُرطًا، فِد انفرطت عليه مصالح دُنياه

(1) رواه الإمام أحمد في المسند عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ (4 / 145) وقال محققه شعيب الأرنؤوط: «حديث حسن وهذا إسناد ضعيف لضعف رشدين بن سعد وباقي رجال الإسناد ثقات» .  
ورواه الطبراني في المعجم الكبير (12 / 300) حديث 14327، وفي المعجم الأوسط (9 / 110) حديث 9272 والبيهقي في شعب الإيمان - (6 / 298)، حديث 4220، والرويان في مسنده (1 / 265 / 89).

(2) الهيثمي، ابن حجر، الزواجر عن اقرار الكبائر (1 / 222)، ابن القيم، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (1 / 89)، ونحو ذلك ما ذكره الذهبي في الكبائر (1 / 227) الكبيرة الثالثة والستون: الأمان من مكر الله.

وَآخِرَتِهِ، وَقَدْ فَرَطَ فِي سَعَادَتِهِ الْأَبَدِيَّةِ، وَاسْتَبَدَلَ بِهَا أَدْنَى مَا يَكُونُ مِنْ لُدَّةٍ، إِنَّمَا هِيَ سَحَابَةٌ صَيْفٍ، أَوْ خِيَالٌ طَيْفٍ.

وَأَعْظَمُ الْعُقُوبَاتِ نِسْيَانُ الْعَبْدِ لِنَفْسِهِ، وَإِهْمَالُهُ لَهَا، وَإِضَاعَتُهُ حَظَّهَا وَنَصِيبَهَا مِنَ اللَّهِ، وَيَبْعَثُ ذَلِكَ بِالْغَبْنِ وَالْهُوَانِ وَأَبْخَسِ الثَّمَنِ، فَضَيِّعَ مَنْ لَا غِنَى لَهُ عَنْهُ، وَلَا عَوَظَ لَهُ مِنْهُ، وَاسْتَبَدَلَ بِهِ مَنْ عَنْهُ كُلُّ الْغِنَى أَوْ مِنْهُ كُلُّ الْعَوَظِ. قَالَ جَل وَعَلَا ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: 19]. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ((نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ)) [التوبة: 67]، فَعَاقَبَ سُبْحَانَهُ مَنْ نَسِيَهُ عَقُوبَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ نَسِيَهُ. وَالثَّانِيَةَ: أَنَّهُ أَنْسَاهُ نَفْسَهُ.

وَنِسْيَانُهُ سُبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ إِهْمَالُهُ وَتَرْكُهُ وَتَخْلِيهِ عَنْهُ وَإِضَاعَتُهُ، وَأَمَّا إِنْسَاؤُهُ نَفْسَهُ: فَهُوَ إِنْسَاؤُهُ لِحُظُوظِهَا الْعَالِيَةِ، وَأَسْبَابِ سَعَادَتِهَا وَفَلَاحِهَا وَصَلَاحِهَا وَمَا تَكْمُلُ بِهِ نَفْسُهُ، يُنْسِيهِ ذَلِكَ جَمِيعَهُ، فَلَا يُحْطِرُهُ بِيَالِهِ، وَلَا يَجْعَلُهُ عَلَى ذِكْرِهِ، وَلَا يَصْرِفُ إِلَيْهِ هَمَّتَهُ فَيَرْعَبَ فِيهِ، فَإِنَّهُ لَا يَمُرُّ بِيَالِهِ حَتَّى يَقْصِدَهُ وَيُؤَثِّرَهُ. وَأَيْضاً فَيُنْسِيهِ عِيُوبَ نَفْسِهِ وَأَفَاتِهَا؛ فَلَا يُحْطِرُ بِيَالِهِ إِزَالَتَهَا وَإِصْلَاحُهَا. وَأَيْضاً يُنْسِيهِ أَمْرَاضَ نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ وَآلَمَاتِهَا؛ فَلَا يُحْطِرُ بِقَلْبِهِ مُدَاوَاتِهَا، وَلَا السَّعْيَ فِي إِزَالَةِ عِلَلِهَا وَأَمْرَاضِهَا الَّتِي تَوَوَّلَ بِهِيَ إِلَى الْفَسَادِ وَالْهَلَاكِ، فَهُوَ مَرِيضٌ مُتَخَنٌّ بِالْمَرَضِ، وَمَرَضُهُ مُتَمَرِّمٌ بِهِ إِلَى التَّلَفِ، وَلَا يَشْعُرُ بِمَرَضِهِ، وَلَا يُحْطِرُ بِيَالِهِ مُدَاوَاتَهُ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَةِ الْعَامَةِ وَالْخَاصَةِ. فَأَيُّ عَقُوبَةٍ أَعْظَمُ مِنْ عَقُوبَةِ مَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ وَضَيَّعَهَا، وَنَسِيَ مَصَالِحَهَا وَدَاءَهَا وَدَوَاءَهَا، وَأَسْبَابَ سَعَادَتِهَا وَفَلَاحِهَا وَصَلَاحِهَا وَحَيَاتِهَا الْأَبَدِيَّةِ فِي النِّعَمِ الْمَقِيمِ!

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ \* وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا

وَتَرَكَ الذُّنُوبَ حَيَاةَ الْقُلُوبِ \* وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عَصِيَانُهَا

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ \* وَأَخْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا<sup>(1)</sup>

تاسعا: أهمية الحوار: الحوار مطلبٌ ضروريٌ للدعاة والمصلحين والقائمين على أمور المسلمين والذي يهدف إلى فهم الرؤى والأفكار وتبادل الخبرات ومراجعة المناهج والوسائل ومعالجة المشكلات والأزمات. فلا بد للدعاة أن يكونوا على بصيرة من أمرهم، ودراية بأحوال الناس، ومراجعة للمقاصد والأهداف، وتجاوز وتجاوز فيما بينهم لتوحيد الكلمة: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبِّكَرُ وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَفُونَ ﴿[الأعراف: 164، 165].

عاشرا: درسٌ في الحضارة ونعمة البحار: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴿[الأعراف: 163]. تنشأ المدن والقرى وتنمو ويتحدد نشاطها الاقتصاديُّ بحسبِ موقعها الجغرافيِّ، ومواردها الطبيعيَّة من المعادن ووسائل الطاقة، وغير ذلك من ثرواتٍ، وفقاً لمشيئة الله، وحسبِ الموقعِ والبيئةِ والمواردِ الطبيعيَّة، وفي هذه القصة لفتٌ لأنظارنا إلى نعمةٍ عظيمةٍ من نعم الله تعالى التي أسبغها علينا وهي نعمة البحار، وما يُستخرجُ منها من كنوزٍ وخيراتٍ قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا ثَلَبُوسًا وَتَرَكَ الْقُلُوكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿[النحل: 14]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُوكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿[الجمعة: 12، 13]. وهذه دَعَوَاتٌ إلى التفكير في نعم البحار وإمعان النظر في خيراتها ومنافعها التي لا تُحصى، ودعوةٌ إلى حسن الإفادة منها مع أداء شكرها.

(1) ابن الجوزي، ذم الهوى، (47).

### حادي عشر: دروس وعبر أخرى

▪ سنة الله تعالى في إمهال العصاة والمذنبين لعلهم يتوبون ويرجعون، وهذا من لطفه بعباده ورحمته التي وسعت كل شيء. فالحذرُ الحذر من الاستدراج، سيِّئاً أولئك الغارقون في بحر الذنوب الهائمون في دروب المعاصي، فإن أخذ الله شديد، وعذابه أليم.

▪ الفسق والعصيان والاستهانة والاحتيال على شريعة الرحمن والعتو والظلم من أسباب النقم.

▪ العتو: معرفة الحق وتركه والتماهي في الباطل مع ظهور بطلانه مكابرة وعناداً، وآفة تستوجب غضب الربِّ عزَّ وجلَّ وتؤدي إلى الخسران والهلاك. قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرِيْبٍ عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَهَا عَذَابًا ثَقِيْرًا﴾ [الطلاق:8].

▪ في القصة الكريمة تتجلى لنا دلائل وشواهدُ قدرة الله تعالى، وعظمته، وعدله وحكمته.

▪ الآفة التي يبتلى بها مجتمع من المجتمعات إن لم تحاصر وتمنع، فإنها تستشري وتستفحل، فينبغي المبادرة إلى التصدي لها والوقاية منها، تأمل كيف انتشر التبرج والربا والمخدرات والأفكار المغلوطة في مجتمعات مسلمة، كيف بدأت من بعض أفراد لم يجدوا مواجهة حاسمة! حتى ذاع الأمر وشاع.

▪ وجوب الاعتبار بقصص السابقين، والاتعاظ بعاقبة الهالكين.

▪ لا ينتفع بالمواعظ إلا أولوا النهى وأهل التقى، فليحرص العبد على تقوى الله فهي زاده وسبيله لكل خير.

- من أسباب الاحتياال ما جبلت عليه بعض النفوس من طمع وجشع وميل للمكاسب الهائلة بأقل مجهود، كالمرايين وغيرهم.
- الجزاء من جنس العمل، كما قال ابن كثير: «... مسخهم الله إلى صورة القردة وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم»<sup>(1)</sup>.
- تشير القصة إلى خطورة الصيد الجائر والذي يستنزف ثروات البر والبحر ويفسد البيئة.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (1/ 134).

## خاتمة البحث

- 1) من خصائص أساليب القرآن الكريم: التفصيل بعد الإجمال، والإيجاز بعد الإسهاب، والبيان بعد الإبهام، وهذه القصة كغيرها من قصص القرآن الكريم، مع ورودها في أكثر من موضوع، إلا أنه لا تناقض ولا اختلاف بل تكامل وتناسق، وانسجام مع سياق الآيات، وامتزاج بمقاصد السور.
- 2) رأينا في ثنايا هذا البحث ما يتسم به القصص القرآني من شمول؛ فما من جانب من جوانب الحياة إلا ونجد في ذلك القصص ما يعالجه، كما أنه بمثابة التطبيق العملي لسنن الله وأقداره، مما يزيد العبد ثباتا ويقينا، وهذه القصة نموذج واقعي لمن يحتال على شرع الله تعالى.
- 3) دقة القرآن الكريم وإنصافه حيث ذكر الناجين بجميل صنيعهم، كما ذكر الهالكين بقبيح فعالمهم، فكما ذكر القرآن الكريم صحائف سوداء مظلمة في تاريخ اليهود، لطالما جدّوا في طيها، لما تنبئ عنه من سوء نية وخبث طوية، فقد جلى القرآن وكذلك السنة صفحات وضاءة مشرقة بمآثر صالحهم ومناقبهم، قد اندرست أو غفلوا عنها.
- 4) ذكر القرآن الكريم لهذه الصفحات المنسية في تاريخ اليهود دليل على صدق القرآن وثبوت كونه منزلا من عند الله.
- 5) حاجتنا لدراسة القصص القرآني واستنباط ما فيه من دروس وعبر، فأقترح مشروعاً علمياً للفوائد المستنبطة من القصص القرآني، ورسالة علمية عن خصائص القصص القرآني ومقاصده.

## مراجع البحث

### القرآن الكريم

- (1) ابن الجزري أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي ت 833 هـ، النشر في القراءات العشر ط دار الفكر بدون تاريخ.
- (2) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن (ت 596 هـ) زاد المسير في علم التفسير 1385 هـ سنة 1965 م ط المكتب الإسلامي بيروت ط 1.
- (3) ابن الجوزي، ذم الهوى ط دار الكتب الإسلامية بالقاهرة.
- (4) ابن العربي الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّد بن عبد الله بن محمد المعافري، ت 543، أحكام القرآن هـ ط دار الفكر.
- (5) ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)، ط دار الكتب العلمية - بيروت.
- (6) ابن بطة، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَرِي (ت 387 هـ) إبطال الحيل، المحقق: زهير الشاويش. ط المكتب الإسلامي. الطبعة الثالثة.
- (7) ابن حجر الهيتمي، الزواجر عن اقتراف الكبائر، ط المكتبة العصرية بيروت 1420.
- (8) ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، 1379، دار المعرفة بيروت.

- (9) ابن دريد، أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد، الاشتقاق ط مكتبة الخانجي - القاهرة ط3.
- (10) ابن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي، ت 546 هـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز 1395 هـ ط المجمع العلمي بفاس المغرب وطبعة دار الكتب العلمية بيروت.
- (11) ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر 751 هـ، إعلام الموقعين عن رب العالمين دراسة وتحقيق: طه عبد الرؤوف سعد ط مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة .
- (12) ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة دار الكتب العلمية - بيروت .
- (13) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم ت 774 هـ ط مؤسسة قرطبة.
- (14) ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ت 275 هـ، السنن، ط دار الحديث بالقاهرة.
- (15) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف الغرناطي، البحر المحيط، ط دار الفكر.
- (16) أحمد بن حنبل المسند، ط المكتب الإسلامي بدون تاريخ، ط مؤسسة الرسالة
- (17) الألوسي، شهاب الدين السيد محمود (ت 1270 هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط دار إحياء التراث العربي ط 4 سنة 1405 هـ.



- (18) البخاري، الجامع الصحيح ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
- (19) البغوي، أبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي (ت 510هـ) معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط دار إحياء التراث العربي بيروت ط1: 1420 هـ
- (20) البقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 1413هـ، ط دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة ط 2.
- (21) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، شعب الإيثار، ط دار الكتب العلمية - بيروت.
- (22) الدمياطي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، 1419هـ ط دار الكتب العلمية - لبنان ط 1.
- (23) الرازي، ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس (ت 327هـ) تفسير القرآن العظيم، 1419هـ ط مكتبة نزار مصطفى الباز مكة المكرمة.
- (24) الروياني، محمد بن هارون أبو بكر ت 307، المسند، 1416 هـ، تحقيق أيمن علي أبو يمان ط مؤسسة قرطبة. القاهرة.
- (25) الزبيدي، محب الدين أبو الفضل السيد محمد المرتضى الحسيني الواسطي الحنفي نزيل مصر ت (1205 هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، ط المطبعة الخيرية بجمالة مصر 1306 هـ 0
- (26) سيد قطب ت 1966 م، في ظلال القرآن، 1407 هـ، دار الشروق ط 13.
- (27) السيوطي، جلال الدين، (ت 911 هـ) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، 1424 هـ، ط: دار هجر مصر.

- (28) الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي، الموافقات، ط دار المعرفة بيروت.
- (29) الشوكاني، محمد بن علي ت 1250، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير دار المعرفة بيروت.
- (30) صلاح الخالدي، مع قصص السابقين في القرآن، ط دار القلم دمشق .
- (31) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت : 360هـ) المعجم الكبير، مكتبة العلوم والحكم - الموصل ط 2، 1404 - 1983. تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي.
- (32) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت: 360هـ)، المعجم الأوسط، ط دار الحرمين - القاهرة، 1415. تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد أعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني.
- (33) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن للإمام ت 310هـ المحقق: أحمد محمد شاکر ط مؤسسة الرسالة - الطبعة: الأولى، 1420 هـ.
- (34) العمادي، أبو السعود محمد بن محمد مصطفى الحنفي (ت 982 هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ط دار إحياء التراث العربي. بيروت.
- (35) فخر الدين الرازي ت 606 هـ، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) 1405 هـ ط دار الفكر.
- (36) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، 1987، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- (37) مجاهد بن جبر أبو الحجاج، تفسير مجاهد (ت: 104هـ) ت د. محمد عبد السلام أبو النيل ط: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر ط1، 1410 هـ.
- (38) محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، 1418هـ / 1998م، مؤسسة الرسالة ط10.
- (39) محمد عبد الوهاب بحيري، الحيل في الشريعة الإسلامية، 1394 هـ سنة 1974 ط السعادة.
- (40) مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري ت 261 هـ الصحيح، دار إحياء الكتب العربية بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.